الثنائية أصل للغة

بقلم : محمد السيّد علي بلاسي
معيد أصول اللغة في كليّة اللغة
العربية ــ جامعة الأزهر

لقد شغلت أذهان الباحثين ــ العرب والمستشرقين ــ من علماء اللغة، قضية لغويّة هامّة، وهي قضية الثنائية والثلاثية في لغتنا الخالدة. تلك التي تبحث في أصول الألفاظ، وهل كانت هذه الأصول ــ في أول وضعها ــ على ثلاثة أحرف أو كانت على حرفين ثم تطورت حتى وصلت الى تلك الألفاظ الثلاثية التي أصبحت تمثل جانبا كبيرا من ألفاظ اللغة العربية..

يرى فريق من العلماء أن أصول الكلمات في أول الامر كانت ثنائية. فلما ارتقت اللغة واحتاجوا الى زيادة التمييز تكونت حينذاك الأصول الثلاثية لتعتدل الكلمة، وتتكون من ثلاثة أحرف، حرف يبتدأ به، وحرف يوقف عليه، وحرف يحشى به ؛ ومن ثمّ كان الثلاثي أكثر الأصول استعمالا وأعد لها تركيبا..

وفي مقابلة هذا الفريق نجد فريقا آخر ــ لم تطاوله الأدلة ــ يرى أن أصول الكلمات كانت ثلاثية..

مراحل الثنائية : لقد اتخذت الثنائية ــ في أذهان القائلين بها والمنادين لها ــ صورا مختلفة، وأشكالا متنوّعة، تعتبر تدرّجا للكلمات الى أن وصلت إلينا، وهذه المراحل هي :

1. **الثنائية التاريخية** : وتتكون من مقطع واحد مكون من صوتين بسيطين متحرك فساكن، محاكاة لأصوات الطبيعة، ثم زيد فيها حرف أو أكثر في الصدر أو القلب أو الطرف باختلاف البلاد، والقبائل، والبيئات، والأهوية.

ومن علماء العرب من مال الى تقرير هذه الظاهرة اللغوية في نصوص واضحة، كابن جنّي الذي ينسب هذا الرأي الى بعض العلماء، ثمّ يبدي إعجابه به وتقبّله له، فيقول : «وذهب بعضهم الى أنّ أصل اللغات كلّها إنّما هو من الأصوات المسموعات، كدويّ الريح، وحنين الرعد، وخرير الماء، وشحيح الحمار، ونعيق الغُراب، وصهيل الفرس، ونزيب الظبي، ونحو

ذلك، ثم وُلدت اللغات عن ذلك فيما بعد. وهذا عندي وجه صالح ومذهب متقبَّل [1].

2. **الثنائية المعجمية** :وهي الثنائي المضاعف، انتقلت من نطاق التاريخ الى بطون المعاجم فسمّيت ثنائية معجمية على اعتبار المُضاعف هجاء واحدا. وأصحاب هذا الرأي لا يعجزهم إيجاد روابط بين الثنائي المضاعف وبين أصله الثنائي في نشأته الأولى، مهما يكُ بعيدا موغلا في التكلّف، فقد بدا لهم أن يتقصوا تلك الثنائية وهي تنتقل من نطاق التاريخ الى بطون المعاجم، وألفوْا أن هناك رابطا معنويًا مشتركا بين الصورة الأصلية المجرّدة والصورة المتطوّرة المزيدة عنها.

وقد نبه الأب أنستاس ماري الكرملي الى معرفة حذّاق اللغويين العرب المتقدمين لهذه الثنائية المعجمية، « فممّن قال بها ولم يتخذ عنها قيد شعرة، الأصبهاني صاحب غريب القرآن، فإنه بنى معجمه على اعتبار المضاعف هجاءً واحدًا، ولم يبال تكرار حرفه الأخير، فهو عنده من وضع الخيال، لا من وضع العلم والتحقيق، أي أنه إذا أراد ذكر (مَدَّ، يمدُّ، مَدًّا) مثلا في سفره، ذكرها كأنها مركّبة من مادة (مَدْ) أي ميم ودال ساكنة، ولا يلتفت أبدا الى أنها من ثلاثة أحرف، أي (م د د)، كما يفعل سائر اللغويين، ولهذا السبب عينه يذكر (مدّ) قبل (مدح) مثلا، ولا يقدّم هذه على تلك، على ما نشاهده في معظم معاجم اللغة كالقاموس، ولسان العرب، وأساس البلاغة، وتاج العروس، وغيرها».. [2].

3. **الثنائية المكررة** : وهي الثنائي المضاعف بالتكرار، وهي التي كرّر مقطعها بكلا حرفيه نحو : عسعس، وزلزل، وصهصه، ومهمه، وصرصر، وغرغر، [3]..

ونحسب أنه لا يغيب عن أحد ــ إذا وقفنا من هذه النظريّة موقف الشارح لها، الموضح لما غمض منها ــ أن الثلاثي المضعف، والرباعي المضاعف، إنما يرتدّان حينئذ الى الأصل الثنائي للفظ العربي، وأن هذا الأصل الثنائي يرتد الى الصوتين البسيطين اللذين ركّبا مقطعه، وأنّ كلاً من هذين الصوتين ما يفتأ يوحى عند التركيب والامتزاج بما كان يوحى به في حال البساطة والافراد [4]..

القائلون بالثنائية : لقد ردّد جمع غفير من علماء اللغة القدماء والمحدثين اقتناعه بفكرة ثنائية اللغة، بل وتعصّب كثير منهم لهذا، وكان لكلّ منهم وجهة نظر يدعّم بها مذهبه، وأدلّة يؤيد بها ما يقول.

فممّن قال بالثنائية من جهابذة اللغويين العرب المتقدمين : ــ

1. الراغب الاصفهاني : حيث عدّ في معجمه «المفردات في غريب القرآن» المضاعف هجاءً واحدًا، ولم يبال تكرار حرفه الاخير ــ كما سبق أن وضحنا آنفا في الثنائية المعجمية.
2. ابن جنّي : حيث مال في سفره «الخصائص» إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو محاكاة للطبيعة، وفي ذلك يقول : «وهذا عندي وجه صالح ومذهب متقبّل». وتلك هي الثنائية التاريخية.
3. ابن فارس : ففي معجمه «مقاييس اللغة»، وكتابه «المجمل»، نراه يردّ الحرفين اللذين ركّب منهما

1. ابن جني : الخصائص 46/1، 47، تحقيق محمد علي النجار، ط. عالم الكتب ــ بيروت، ط 3 سنة 1403 هـ.
2. الأب أنستاس ماري الكرملي : نشوء اللغة العربية ونموّها واكتهالها، ص 2، المطبعة العصرية سنة 1938م.
3. د. إبراهيم محمد أبو سكّين : فقه اللغة، ص 63، 64 ــ بتصرف ــ ط أول ــ مطبعة الأمانة بمصر.
4. د. صبحي الصالح : دراسات في فقه اللغة، ص 147، 148، ط 10 سنة 1983م ــ دار العلم للملايين-بيروت.

الأصل الثنائي وما تفرّع عنه من ثلاثي أو يزيد، يردّ ذلك الى معنى واحد تشترك فيه المادة وما تفرّع عنها.. ففي كتابه «مقاييس اللغة» نجد — مثلا — أنه يردّ أصل (باب القاف والطاء وما يثلثهما) [5] إلى معنى القطع، فيراه في (قطع) الذي يدلّ على صَرْم وإبانة شيء من شيء، وفي (قطف) الذي يدل على أخذ ثمرة من شجرة، وفي (قطل) الذي يدل على قطع الشيء، وفي (قطم) الذي يدل على قطع الشيء أيضا. فالعين والفاء واللام والميم جاءت أحرفا زائدة على الأصل الثنائي (قط) فخصصت معنى القطع ونوعيّته بين الصرم والابانة والأخذ، وردّدته تبعا لأصواتها بين درجات الشدّة والغلظة في إحداث القطع [6].

وبصنيع ابن فارس هذا يصل الى الثنائية التاريخية لكل كلمة من كلم العربية.

4. ابن دُرَيد : لقد جرى أصحاب المعاجم على إفراد باب خاص للمواد المعتلة، يؤخرونه إطلاقا كما فعل ابن منظور في «اللسان» والفيروزبادي في «القاموس المحيط»، أو يرجئون ذكره الى آخر كل باب على حدة قبل الانتقال الى باب جديد، فلا يرددون المواد المعتلة الا بعد سردهم جميع المواد السالمة الصحيحة، كما فعل بعض المعجميّين الاشتقاقيين. غير أن ابن دريد قد انفرد من بين اولئك الاشتقاقيين بمزية هامة حقا، حيث لم يكتف باتباع الصحيح بالمعتل، بل حَرَص على إتمام القول في الثنائي المعجمي صحيحا ومعتلا قبل أن ينتقل الى الثلاثي، فاذا ختم باب الثنائي الصحيح فاجأنا بباب (الثنائي المعتل وما تشعب منه)، كأن الثنائية المعجمية لديه أمر قطعي صريح لا يقبل الجدل، وكأنه لا يزال يستأنس بذلك على صحة هذا المذهب وسلامة النظرة إليه [7].

وممن نادى بالثنائية من المحدثين العرب :

1. الأب أنستاس ماري الكرملي : فقد دافع عن الرأي القائل بثنائية اللغة بكلّ ما أوتي من حكمة، وأخذ يدعمه في الاندية، ويفصّل دقائقه في المجامع اللغوية، ويوضح كثيرا من مناحيه في الصحف والمجلات. ويبدو هذا بوضوح من كتابه «نشوء اللغة العربية ونموها واكتهالها» الذي يقول فيه عن هذا الرأي : «إننا اتبعناه منذ أولعنا بهذه اللغة المبينة، الرائقة، فأخذنا بنشره، وتفصيل دقائقه منذ سنة 1881م» [8]..

2. الأب مرمرجي الدومنكي : ولم يكن الدومنكي أقل حماسة من الكرملي في الدفاع عن القول بالثنائية، فكتب فيها المباحث الكثيرة، ثم جمع طائفة منها في كتب ثلاثة صغيرة، نشرها بعنوان (أبحاث ثنائية ألسنية) وقد طبع أولها سنة 1937، ثم الثاني سنة 1947، وتلاه الثالث سنة 1950. وقد حاول في بحوثه أن يقارن بين العربية والألسنية الساميّة ؛ لتأكيد ما يدعو اليه من ردّ الثلاثي إلى الثنائي [9].

3. الأستاذ عبد الله العلايلي : يرى أن الثلاثي نشأ عن الثنائي على الصورة التي عليها المعلاّت بزيادة حرف من حروف الهجاء أكثر ما يكون في وسط الكلمة. فعبل — مثلا — أخذت من (علا) المعتلة

5. ابن فارس : معجم مقاييس اللغة 12/5، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط 2 سنة 1969م — مصطفى البابي الحلبي بمصر.
6. د. صبحي الصالح : دراسات في فقه اللغة، ص 156.
7. المرجع السابق، ص 162 — بتصرف.
8. الأب انستاس ماري الكرملي : نشوء اللغة العربية ونموّها واكتهالها، ص 1، 2، فراجعه تجد مزيدا من التفصيل.
9. د. عبد الغفار حامد هلال : علم اللغة بين القديم والحديث، ص 49، ط أولى — دار الضياعة المحمّدية. وقارن بدراسات في فقه اللغة : ص 154.

وأصلها (عل)، وبذل الحرف المعتلّ من (علا) للعوارض حتى حذف، وعوّض عن حرف العلّة المحذوف الباء، فصارت عبل.

ونادى الاستاذ العلايلي باتخاذ المعلاّت المحفوظة في المعاجم المتعدّدة ذخيرة للباحث لفهم الثلاثي على طريقته، وبهذه الطريقة يستطيع للباحثين تأصيل المادة اللغويّة والوقوف على الأصل التاريخي الذي انفصل عنه الثلاثي وتفرّع منه.

غير أن رأي الاستاذ العلايلي لا تطاوله الادلة، حيث أخذ عليه بعض الأمور :

أ. لا صلة تصل بين (عل) وبين مادتي (عبث وعبد) وما أشبههما من المواد التي تتوسطها الباء.

ب. عوض عن حرف العلة الباء، وهذاالحرف غير معهود عند العلماء أن يعوض به عن محذوف.

ج. وسط الكلمة ليس مكانا للتعويض.

د. حذف حرف من وسط الكلمة يعد إسقاط جزء لا يتجزأ من بنية الكلمة، ويعد مسخا لها، ومن ثم لا تعبّر عن غرضها تعبيرا دقيقا كاملا.

من هنا، فإن تفسير الأستاذ العلايلي للثنائية مبني على الافتراض والظن [10]..

4. جرجي زيدان : يرى أن الثلاثي أخذ من الثنائي من طرق منها النحت ؛ وذلك لأن الكثير من الصيغ الثلاثية يقبل الحل الى أصلين ثنائيين لكل منهما معنى في نفسه، وذلك نحو (قطف) فإنه يفيد القطع والجمع، والأصل فيه : (قَطْ + لَفْ)، الأول قَطع، والثاني جمع، وبالاستعمال أهملت اللام ونُقلت حركتها الى ما قبلها فصارت : قطف... وهكذا في (قمش) أي جمع ما على الأرض من الفتات، فإنها تردّ الى أصلين (قَمْ + قَشْ)، الأول بمعنى كنس، والثاني جمع. فكانوا إذا أرادوا كنس شيء ما وجمعه قالوا : (قم قش) وبالتخفيف ألغيت القاف الوسطى فقيل : قمش. وهكذا الحال في (بعج)، فإنها ترد الى (بع بج) وغيرها من الكلمات كثير ..

ويرى زيدان أن مما يقوّي رأيه هذا وجود النحت في الرباعي بنحت أربع أو خمس كلمات الى كلمة واحدة، كقولهم (هيلل) أي قال : (لا إله إلا الله)، و(حيعل) أي قال (حي على الصلاة حي على الفلاح)، و(طلبق) أي قال : (أطال الله بقاءك) [11].

إن مثل هذا المذهب ليس في الواقع الا صدى لآراء بعض اللغويين القدماء في النحت، وفي طليعتهم ابن فارس الذي يؤكد «أن للرباعي والخماسي مذهبا في القياس، يستنبطه النظر الدقيق. وذلك أن أكثر ما تراه منه منحوت. ومعنى النحت أن تؤخذ كلمتان وتُنحت منهما كلمة تكون آخذة منهما جميعا بحظ. يقال :(بحثرت الشيء) إذا بدّدته، فهذه منحوتة من كلمتين : الأولى من بحثت الشيء في التراب، والثانية من البَثْر الذي يظهر على البدن، وهو عربي صحيح معروف» [12]..

ولقد أشار جرجي زيدان في كتابه «الفلسفة اللغوية» الى رأي ابن فارس هذا، وعقب قائلا عليه : «وهذا رأي بعض اللغويين في الرباعي ولا نرى مانعا

10.د. إبراهيم أنيس : فقه اللغة، ص 66، 67 ــ بتصرف يسير ــ
11.جورجي زيدان : الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية، ص 85 ــ 88 بتصرف ــ الطبعة الثالثة.
12.ابن فارس : معجم مقاييس اللغة 328/1 ــ 330 ــ بتصرف ــ

من إطلاقه على الثلاثي أيضا» [13]..

بحث ونتيجة :

ومواكبة منا في الوقوف على أصل اللغة هل هي ثنائية أم ثلاثية ؟ قمنا بعمل بحث حول هذه القضية، جمعنا فيه المضعف الثلاثي ــ من معجم «المصباح المنير» للفيومي ــ فوجدناه يشرف على المائة مادة، ووازنّا تلك المواد بنظيريها الأجوف والناقص ؛ لنرى مدى ارتباط الثلاثة بالأصل الثنائي لهم، وإثبات ذلك من واقع المعاجم اللغوية. واتخذنا معجم «مقاييس اللغة» لابن فارس، هاديا لنا ــ في غالب الاحيان ــ في معرفة : دوران المادة حول أصل واحد.

خذ على ذلك مثلا مادة (جَفْ) وما يثلثها. تجد أن الأصل الثنائي وما تفرّع عنه يدور حول الجفاف [14]، فالمضعّف الثلاثي (جَفّ) من معانيه : الثوب اذا يبس [15]. واذا يبس الثوب دلّ على أنه جفّ.. أما الأجوف (جاف) فمن معانيه : الثوب إذا غلظ [16]. ولا يخفى في الغلظ من الجفاف غالبا.. وأما الناقص (جَفَا) فيدل على نبوّ الشيء عن الشيء وارتفاعه عنه [17]. ومعلوم أن الشيء إذا جف حدث فيه ارتفاع كالجلد مثلا...

وهكذا نجد أن كل حرف زيد على الأصل الثنائي يجري على قانون التطور اللغوي تنويعا، أو إقحاما، أو تذييلا، مع بقاء اللُّحمة المعنوية بين الثنائي والثلاثي، كما هي مستمرة بين الثلاثي والرباعي، وما فوقه من المزيدات. فكان من أسرار العربية، تبعا لهذا، أننا كلما رددنا موادها المزيدة الى الصورة الثنائية التاريخية، وجدنا الحرف الذي ثلث أصلها ما يبرح ذا قيمة تعبيرية ذاتية توجه المعنى الأصلي العام توجيها خاصا، وتزيده تنوعا وتقييدا [18]..

من هنا، يتضح لنا أن هناك علاقة قوية في المعنى بين المادة الثنائية وبين الألفاظ الثلاثية المشتركة معها في حرفين، وأن الذي يتقرى كلم العربية بإنعام نظر يجد أن لمعظم موادها أصلا ثنائيا يرجع إليه كثير من كلماته إن لم نقل كلها ؛ مما يؤكد لنا أن الثنائية أصل للغة، على خلاف ما يزعم البعض من أن الثلاثي هو الأصل.

وبعد، فهذه محاولة لاثبات أصالة الثنائي في ألفاظ العربية. ولا ندعي الاحاطة والكمال في قضايا هذا البحث، ولعل الايام تكشف لنا جوانب أكثر إقناعا وإضاءة، والله المستعان..

* * *

13.جورجي زيدان : الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية، ص 58.
14.ابن فارس : معجم مقاييس اللغة 416/1.
15.ابن منظور : معجم لسان العرب، ص 641، ط دار المعارف بمصر.
16.الفيّومي : المصباح المنير، ص 104، تحقيق د. عبد العظيم الشناوي، ط. دار المعارف.
17.ابن منظور : لسان العرب، ص 646.
18.د. صبحي الصالح : دراسات في فقه اللغة، ص 155، 156.